مطبوعات حديثة

خطط الشام

« الجزء الرابع »

تناول الاستاذ الرئيس في هذا الجزء من كتابه الممتع — التاريخ المدني — فافتتحه بالكلام على العلم والادب ، ألمّ من ذلك بما عرفه عن هذا القطر قبل الاسلام . ثم بسط الكلام في ذلك بعد الاسلام قرناً قرناً . فعدد عشرات من رجال كل قرن ، في كل علم وفن . ونوّه بطبقة من الفنانين قلّ ان عُني بهم من كتب في التاريخ . وأحسن كل الإحسان اذ قال : « ومن الغريب ان بعض المتأخرين ممن دوّنوا تراجم اهل عصورهم حرصوا على تراجم المجاذيب والمخرفين ولم يذكروا اهل تلك الايام من المقدرين والبنائين وغيرهم ممن خلدوا بآثارهم مدنية أعصارهم » .

وأشار الى تاريخ التدوين والنقل ، والى البحوث العلمية في أقدم تاريخ الاسلام . والى إنشاء المكاتب والمدارس ودور العلم (الجامعات) . والى ما كان من ارتقاء في بعض الاعصر ، وما كان من انحطاط في البعض الآخر . وعلل الاسباب في كثير من المواطن . ووصف (تأثيرات الاجانب في التربية) .

ثم انه انتقل الى النهضة العربية الاخيرة في الشام ، فنوّه بالذين قاموا بها ، او كان لهم اثر فيها . وتعرض لمدارس الحكومة العثمانية ، بفعل المؤرخ المنصف ، وعقد للصحافة العربية فصلاً قيماً : ذكر فيه نشأتها الاولى . وجهود ابناء الشام في سبيلها ، في الشام ، وفي غير الشام . وشخّص داءها ، ووصف دواءها ، وبين ما نحتاج اليه منها ، ومن تحتاج اليه منا . وختم هذا الباب بفصل عن الطباعة والكتب ، وحركة التأليف والنشر ، وما يعتورهما من نقص ، وما لذلك من علل .

وأدار البحث الثاني على الآداب الرفيعة (الفنون الجميلة) فبدأه بالموسيقى . ذكر نشوءها الطبيعي ، وأثرها في النفس ، وحظ العرب منها ، وعناية دولهم بها . ونوّه بالمشهورين في هذا الفن ، وسرد اسماء طائفة كبيرة منهم : رجالاً ونساء ، ولا سيما من اهل الزمن الحاضر . ثم انتقل الى التصوير فجمع اليه النحت ايضاً ، وتكلم بعد ذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن النقش والبناء ، فذكر أقدم ما وصل اليه بحثه عن هذه الفنون في هذا القطر . فأشار الى اشياء من التماثيل المنحوتة ، والنقوش البديعة التي عفت عنها عوادي الايام .

وأفاض بجواز التصوير في الاسلام إفاضة محمودة شائقة . وقال ان المسلمين : « حاذروا اذا أجازوا الرسم المجسم ان يكون في عملهم مدرجة للعرب الى الرجوع الى عبادة الأصنام ، فجعلوا في التجوز بعض القيود الخفيفة . فلما ذهبت تلك الخشية اخذت مسألة التصوير تنحل شيئاً فشيئاً ، وبعد الى ما فيه مصلحة ونفع » واستشهد على ذلك بان نفراً من الصحابة استعملوا الصور واستصنعوها في بيوتهم .

قال وبعد ان كان العرب لاول عهدهم في الشام — عالة في التصوير على الروم والفرس نشطوا بعد ذلك فأخذوا بهذا الفن شيئاً بعد شيء حتى برعوا فيه . فجاؤا من النقوش الزاهية ، والتصاوير العجيبة ، بما يأخذ بالابصار . وتفننوا بتصوير النبات تفنناً غريباً فصوروه على انحاء شتى .

وجعل بعد ذلك باباً خاصاً بالزراعة ، وآخر بالصناعة ، وثالثاً بالتجارة . فكان اكثر كلامه عن هذه الموارد الحيوية الثلاثة ، من الوجهتين الاجتماعية والتاريخية ، فجاء من ذلك بكلام ممتع مفيد ، ليس وراءه غاية . تناول به طرائق متعددة من حيث بيان الأنواع ، وذكر المواطن ، وشرح العلاقات الزراعية والصناعية والتجارية ، واحوال القائمين بها . وختم مبحث الزراعة بفصل اختص به الحمات الشامية .

وعهد في الكلام عن هذه الموارد من وجهتها الفنية ، الى رجال من اهل العلم والاستقراء ، او الاشتغال والممارسة ، فأحسن المؤلف الاختيار اذ أجاد الكاتبون في الشؤون التي عالجوها إجادة حسنة .

هذا وصف مجمل ما أحسب انه يقوم بحق هذا الكتاب . لذلك اري من الذمة في النقد ان أشير الى بعض الاشياء التي وردت فيه ، ليعرف من لم يطلع عليه ، مبلغ الاستاذ من الحرص على خدمة أمته خدمة ادبية صادقة . وكيف انه كان منصفاً في ما كتب ، واستشهد . ليس بالعصبي تأخذه النزعة القومية فيلصق بقومه من الفضائل ما لم يكن لهم ، على نحو ما يفعل كثير من المؤرخين متى كتبوا عن قومهم ، ولا بالضعيف يرى محاسن قومه فيغضي عنها مخافة ان يُتهم بالعصبية لقوم لا دولة لهم ولا علم .

ولكنه كان بين ذلك مؤرخاً صادقاً ، يشيد بحضارة قومه الحق . و يثني على ما كان لهم من فضل . و ينبه الى ما سبق لهم من خطأ . داعياً أمته الى نهضة قومية ، مسمعاً قومه ما يقول المنصفون منهم .

والى القارئ قليلاً من كثير، كان حقاً ان ينوه به كله ، لولا خوف انتشار الكلام:

استشهد على حضارة العرب بجملة من التاريخ العام هذا بعضها :

« فالمدنية التي عمل فيها هذا العدد الكثير من المؤازرين المختلفين ليست اذاً عربية صرفية لا بل هي بحسب النموذجات التي تشبعت بروحها والمحيط الذي كبرت فيه يونانية وفارسية وشامية ومصرية واسبانية وهندية ، ولكن اذا وجب ان يذكر لكل واحد قسطه من العمل لا يسع المنصف الانكار بان قسط العرب منه كان اعظم من غيرهم ، فلم يكونوا واسطة فقط لنقل هذه المدنية ، ينقلون الى الشعوب الجاهلة في افريقية واسبانيا واوربا اللاتينية ، معارف الشرق الادنى والاقصى وعلومه واختراعاته ، بل احسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل مكان . فمن مجموع هذه المواد المختلفة التي صُبّت فتمازجت تمازجاً متجانساً ، ابدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم . وبفضلهم تيسر للحضارة الاسلامية في القرون الوسطى التي عاونت فيها ابداً اخرى ، ان تكون ذات وحدة موصوفة فالتقليد فيها محسوس ولكنه تقليد غير اعمى ، فان سلطة الاساتذة الأقدمين لا تمنع الابحاث العلمية والاختراعات الحديثة ، كما ان مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحول دون انتشار التفنن ولطافة الإبداع في الإختراع . وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق احدى مراكزها ومنبعث انوارها اه » .

وهذا ما نقله عن تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها : « اما بشأن اللغة (اي في عهد الصليبيين) فقد حدث ما يحدث في مثل هذه الأحوال على صورة مطردة ، وهو ان اللغة الاكثر تمدناً قد اثر اهلها في غيرهم . وكان اكثر الامم تمدناً بلا مراء الشرقيون ولا سيما العرب واليونان . وقد تعلم قليل جداً من العرب والترك والفرس لغة الافرنج ماعدا بعض التراجمة الرسميين . وعلى العكس تعلم كثير من الصليبيين لغة الوطنيين عقيب وصولهم الى فلسطين .... ولا ريب ان مجاورة التمدن الاسلامي ، قد ساعدت على زيادة النفوذ الذي كان العلم العربي والفنون العربية تؤثر فينا منذ زمن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

طويل . ومعلوم ماندين به لهذا التأثير كل من الفلسفة والرياضيات والفلك والملاحة وتركيب النيران الصناعية والطب والكيمياء ، حتى فن الطبخ . فقد اخذنا عن العرب أشياء كثيرة من مثل طريقة الارقام وشروح ارسطو حتى حمام الزاجل والشمار ، وأدوات الموسيقى والأزياء والأقمشة والأزهار والبقول . وبعد فاذا حدث أحياناً ان الأشياء التي نقلت لم تكن تسمى الا باسماء المدنية الشرقية التي اخذت منها مثل ثوم وعسقلان وقماش دمشق ، فان غيرها قد احتفظت باسمائها العربية مع بعض التحريف وهي كثيرة ويتألف منها في الفرنسية مجموع كبير في الجملة » .

ومما نقله قول رنان : « ان الفكر الديني لسوء حظ الاسلام تغلب بعد جدال طويل تخنق الحركة العلمية الفلسفية الباهرة التي جملت المدنية العربية بتأثيرات الفارسية واليونانية والنسطورية واليهودية ردحاً من الدهر ، وارثة المدنية اليونانية قال واوربا مدينة لمدنية العرب ببقايا العلم الذي قطفت ثماره في القرون الوسطى » .

ومما قاله المؤلف في وصف القرن الثاني عشر : « دخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديد ، الا النظر في قضايا قديمة لا كتها الألسن قديماً ، لا إبداع فيها ولا اختراع . فالمسائل الدينية المقررة تنقل خلفاً عن سلف ، والآداب العربية تنحط ، حتى أصبح الشعر والنثر في حالة مخزية و « صارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير » كما قال احد العارفين بذاك القرن . وأصبح القوم الا قليلاً ممن عصم الله كما قال حجة الاسلام الغزالي : والههم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم ، وإرادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم خدمتهم اغنياءهم ، وذكرهم وساوسهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم ..

وقال في كلامه عن القرن الثالث عشر : « ثم ان الدولة العثمانية أنشأت المدارس العالية ... فأخذ بعض أفراد من الشاميين يدرسون فيها ولكن بالتركية ، فكان ذلك الى آخر عهد العثمانيين في ديارنا من العوائق الكبيرة في سبيل نشر العلم ، لان الدولة كانت تحرص على نشر لغتها ، وأبناء العرب او من يريد ان يسلك مسالك الجيش والطب والإدارة والهندسة والزراعة أرغمتهم الحالة على التخلي عن لغتهم ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فجاء اكثرهم ضعافًا حتى في العلم الذي أخصوا فيه ، وكانوا أضعف من ذلك في لغتهم ...

و يقول في موضع آخر : « وقد ضعفت في هذا القرن ملكة البيان في المسلمين وهم يتلون القرآن ولكن بدون ان يتدبروا معانيه ويفهموا إعجازه ، حتى أصبح الفقيه والمحدث والنحوي والبياني والمنطقي لا يحسن كتابة سطرين الا بصعوبة ليس بعدها صعوبة . و يتعاصى عليه فهم الكلام الفصيح دون الرجوع في المفردات البسيطة ? الى المعاجم ، وضعف الشعر على تلك النسبة ، بحيث لم ينبغ الا افراد قلائل من الشعراء يستحق شعرهم ان يسمع و يدون ، بل كانوا اذا أرادوا الخطب في الجوامع والمساجد يحفظون شيئًا منها لاهل العصور التي سلفت و يوردونها بدون مناسبة ، بل ان الاجازات التي يكتبها الشيوخ وغيرها من التحميدات والتقاريظ وأدعية المواسم ينقلونها عن الأقدمين ويحرفونها على صورة مستكرهة مهزءة وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبز الاب للابن . وكان المفتي ابو السعود من مشايخ الاسلام في الاستانة اول من ابتدعها وأخرجها للناس ، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والامامة وغيرها من المسالك الدينية توسد الى الجهلة بدعوى ان آباءهم كانوا علماء . وهم يجب ان يرثوا وظائفهم ومناصبهم — وان كانوا جهلة — كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم .

وهو يقول في كلامه عن القرن الرابع عشر : « وكان الفضل في هذه النهضة الشامية لمدارس لبنان وبيروت وعناية بطاركة الموارنة وبطاركتهم (لعله يريد مطارنتهم) وأساقفتهم وقسيسيهم بالعلم واللغة ! اما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية فانبعثت جذوتها من الجامعة الاميركية اكثر من غيرها . ولو لم تُبطل تدريس العلوم بالعربية وتجعله انكليزيا منذ أوائل هذا القرن لتضاعفت الفائدة التي نشأت من هذه المدرسة العالية ...

ان المدارس الطائفية ومدارس المرسلين من الاميركيين واليسوعيين والألمان والانكليز والطليان واليونان والروس وغيرهم من الامم ذات المطامع في الارض المقدسة قد جعلت التربية متلونة في هذه الديار ، فأصبح كل متعلم يخدم الغرض الذي أنشئت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

له مدرسته ، وانقسمت الامة بهذا الضرب من التعليم اقساماً شتى ، وتباعدت مسافة الخلف بين ابناء البلد الواحد ، لاختلاف المذاهب بل للاختلاف في المذهب الواحد، مما لم يكن له اثر يذكر في غابر العصور ، ولان معظم المدارس التي أنشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل في تأسيسها مذهب خاص في الدين والسياسية ، فالانجيليون او البروتستانت لنشر دعوتهم كل يوم ، واليسوعيون ينزعون منزعاً آخر في التربية الدينية والسياسية ٠٠٠ وكم رأينا رجالاً ونساءً درسوا في تلك المدارس فجاؤوا لا عرب ولا افرنج ! يتكلمون في بيوتهم بغير لغتهم ، ولا يشعرون شعور الشامي ، بل يبغضون تقاليدهم وتاريخهم ٠٠٠ ولذلك صح ان يقال ان تلك المدارس لم تنفع البلاد النفع المطلوب ، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها ، بان هيأت لها في هذه الديار انصاراً ٠

وبينا نرى بعض المسلمين يكتبون التركية كأهلها وشعورهم تركي صرف ولم ينفعوا بلاد الشام بشيء كثير من علمهم ، نشاهد كثيرين ممن درسوا في مدارس الرهبان والقسيسين والحاخامين يكتبون الفرنسية او الانكليزية او الالمانية او الروسية او اليونانية احسن من كتابتهم لغتهم بدرجات وكل هؤلاء لم يستحق احدهم اسم العالم والأديب ٠٠٠٠

وبهذه الطرق المختلفة في مناحي التربية يستحيل ان تجتمع ابناء الوطن على مقصد واحد لان كل واحد يتعلم النفرة من مخالفه في معتقده ، وخصوصاً في مدارس بعض الرهبنات التي تهزأ بالاسلام والعرب ، وتحرف التاريخ الصحيح ولا تعلّم منه الا ما ينطبق مع رغائبها ، ولا يفيد شيئاً في تكوين الوطنية والقومية » ٠

ومن قوله في معرض كلامه عن الوراقة : « فللدمشق على فرنسا بل على المدنية بأسرها ، الفضل الاول في تعليم هذه الصناعة للغربيين ، وناهيك بانها أم صناعة نشرت العلم والافكار في العالم » ٠

هذه الحقائق هي التي يجب على شباب العرب وابناء الشام ان يعرفوها فيتدبروها ، قبل ان يعرفوا اسماء ملوك فرنسا وكرادلتها ورؤساء جمهورياتها ، وملوك الانكليز ورجالات السياسة فيهم ٠٠٠ بل هي الحقائق التي ينبغي لهم ان يتدارسوها ويعملوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بها ، حتى قبل ان يعرفوا مدد الخلفاء واسماء اولادهم ، وهل كان المعتصم مثلاً مثمناً او مسبعاً او مسدساً ....

وبعد ، فنحن من وجه آخر نرى حقاً علينا ان نذاكر الاستاذ المؤلف في الامور الآتية :

اولاً — ان الاستاذ غلبه ما في نفسه من رغبة في تشجيع الناس على الاشتغال بالعلم والادب فأدخل في هذين البابين أشخاصاً ليسوا من العلم والادب في شيء ، وقسّم من أدخلهم الى طوائف قسمة لا تنطبق على قاعدة ولا أساس . ولقد كانت مصيبة الادب من ذلك اكبر مصيبة . اذ جاء بسلسلة من الاسماء سماهم كلهم أدباء ، وفي هؤلاء الذين جعلهم أدباء ، من اذا حاول كتابة سطر في العربية لم يستطعه ، وبعضهم لا يحسن ان يقرأ عبارة واحدة قراءة صحيحة . ولا يرد على ذلك انه لم يخصص من سمى بالآداب العربية . فسياق الكلام كله ، يدل على انه لم يرد غير الادب العربي ، وفيما سبق مما استشهدنا به من قوله : « وكل هؤلاء لم يستحق احدهم اسم العالم والاديب ... » ما لا يترك للتردد في ذلك مجالاً . دع ان في من سماهم كثيرين ممن لا يعرفهم أدب من آداب اللغات على اطلاقها .

ومع ان الأديب هو اللقب الذي كان يعز على من رامه و يطول . وهو الذي عرّفه الاستاذ في الصفحة الاولى من كتابه هذا « بانهم اصطلحوا بعد الاسلام بمدة طويلة على تسمية العالم بالشعر اديباً ، وعلوم العربية ادباً » هذا اللقب الكبير تركه الاستاذ في كتابه من الألقاب المبتذلة التي يعافها الادباء بل أشباه الادباء ..

ومن مثل هذا التساهل الذي لا يجمل تدوينه قوله : « وكان من اهل بيت صلاح الدين (يريد الايوبي) الشعراء المفلقون . اما ان كان في هذا البيت من قال الشعر فنعم . واما ان يكونوا شعراء ، ومفلقين ! فهذا مايحتاج الى دليل . ومن تساهله ايضاً في اعتماد بعض الرواية من غير معايرة قوله انه « قيل انه كان في دمشق وحدها ثلاثون الف نول للنسج قبل الحرب » وهذا قول مبالغ فيه ؛ لا يقبله العقل بالنسبة لعدد سكان المدينة ، ولما يحتاجه كل نول من الايدي العاملة على ما بيّن عدده السيد الحفار في مقاله عن التجارة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثانياً — كنت أحب له ان لا يستنكف عن الحكم في حيث يجب ان يكون له رأي فصل يأخذ به قراء كتابه ، او يهتدون به . فهو يكتفي أحياناً ببسط الأقوال ولو متضاربة . فاذا قال مثلاً : ان الفاطميين أرهقوا السنة في كل قطر ، وعقب على ذلك بقول القلقشندي : ان الفاطميين كانوا على العكس يتألفون اهل السنة والجماعة . وقف بالقارئ عند هذين القولين من غير تمحيص ولا ترجيح . و يبقى القارئ بعد في مبح من امره . لا يعرف باي القولين يأخذ . ومثل هذا ما كنا أشرنا اليه في كلامنا السابق عن جزء من الاجزاء السابقة .

ثالثاً — عاب على الجامعة العربية السورية ، ضعف الملكة العربية في القائمين بها ، وغلبة التربية التركية عليهم . ورأى ان دواء هذا المرض بالاتيان من مصر ، وبلاد الغرب بعلماء إخصائيين في الفروع التي لا نحسنها من فروع العلم . وهذا الدواء لا نستطيع ان نوافق الاستاذ عليه . ذلك ان العربي المصري يحول دوننا ودينه حوائل غالبة لا قبل لنا — لسوء الحظ بدفعها — والغربي ينقل لك لغة التدريس من العربية الى لغة غريبة ، وقيمة هذه الجامعة ان العربية لغتها . فمتى أضاعت هذه اللغة ، فقد أضاعت قيمتها كلها . ومهما قيل في هذه الجامعة من حق او من بطل ، فان لها على هذا القطر الشامي ، ولا سيما معهد الحقوق يداً لا تنكر . غير ان هذا كله لا يمنعنا من موافقة المؤلف على ما عاب فيه هذه الجامعة ، ولا سيما في ضعف الملكة العربية ، وقد رأينا كثيراً من الكتب ينقل نقلاً حرفياً ، لا يتفق مع حاجة الأمة ، ويضيع معه المعنى في كثير من الأحيان . حتى لقد وقع الينا بعض من هذه الكتب فرجعنا أبصارنا في عبارات ومباحث بل طلاسم لا تحل لها رموز ، ولا يليق ان توضع أمثالها بين ايدي الطلاب . وأفضل ما نراه والحالة ما ذكرنا — ان تؤلف لكل فن لجنة من اهله ، ومن الواقفين على الأسلوب العربي الصحيح ، ومن رجال الصراحة والإخلاص ، تنظر فيما ينقل من الكتب ، فلا يدرس كتاب الا بعد ان تقره هذه اللجنة . وان لا يكون هوس كل استاذ في ان يضع كتاباً لنفسه ، بل عليه ان يعتمد اول الامر الكتب التي ضعها غيره ، متى كانت وافية بالمراد ، او امكن ان يستدرك ما فيها من نقص او قصور .

رابعاً — جاءت الفاظ كان من حقها ان تفسر مثل : الخزان . والركاض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

والمجهز . وهي الأصناف الثلاثة التي قسم اليها التجار جعفر بن علي في كتابه (الاشارة الى محاسن التجارة) وهذه الالفاظ لا يصح لنا ان نجتهد في تفسيرها اجتهاداً يوافق معناها الوضعي بل علينا ان نعرف معناها الاصطلاحي ، لعلنا نستطيع ان نستعملها اليوم لما استعملت له من قبل ، او لأصناف أخرى من تجار اليوم .

خامساً — حبذا لو ترك الكلام على معادن البلاد ومناجمها لمهندس من ذوي الاختصاص كما فعل بسائر المسائل الفنية .

نقف القلم عند هذا الحد . ونعود فنكرر الثناء على همة الاستاذ ، فلقد خدم بكتابه هذا خدمة جلى ، من حق كل عربي ان يقدرها قدرها ، وان يزين بهذا السفر الممتع مكتبته ، ليرجع اليه ، ويعول عليه .

عضو المجمع العلمي العربي

عارف النكدي